التربية النفسيّة في ظلال الآية القرآنيّة

Psychological education in the light of Quranic verse

ط د. أحمد أمين بوعلام الله[1]، أد. مختار بن قويدر[2]

Ahmed Amine Boualamallah[1]

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي –معسكر-(الجزائر)، ahmed.boualamallah@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2020/05/04 تاريخ القبول:2020/06/03 تاريخ النشر: 2020/06/30

الملخص:

يروم الباحث تحت راية هذا العنوان أن يجمع جملة من الأفكار التربويّة والنفسيّة التي هي سبب في صلاح الفرد والمجتمع، ولا تستقيم حياته إلا بالرجوع إليها واعتمادها، ذلك أن الإنسان هوكيان من مادة وروح فلا يستجيب لحاجياته إلا من كان مستيقنا بتركيبة الإنسان وحقيقتها، عالما بأسرارها وانفعالاتها، ولذلك فإن المناهج البشريّة التي جاءت تحاول الكشف عن أغوار النفس والمناهج المثلى لتربيتها، لا تزال قاصرة ما لم تستند على الوحي الرباني، فهو الدليل الهادي في ظلمات الانحراف والزيغ عن الحياة الفاضلة؛ التي هي من خصائص الشريعة الإسلاميّة الموسومة بالوسطية والاعتدال.

الكلمات المفتاحية: التربيّة؛ النفس؛ الآيات القرآنيّة.

***Abstract*:**

Under the banner of this title the reasearcher intends to collect a set of educational and psychological ideas, there are a reason for a goodness of the individual and society, and his life upright only by reference and approval because the human being is an entity of matter and spirit that does not respond to his needs except those who were certain of the composition and reality of man, knowing its secrets and emotions and therefore the human approaches that came trying to reveal the depths of the soul and the optimal approaches to its upbring are still deficient.

***Keywords*:** Edecation, Spirit, Quranic verses.

مقدمة:

إن البشريّة منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا قد عرفت منهجين للتربيّة لا ثالث لهما؛ الأول: المنهج الإلهي الذي أنزله الله على أنبيائه ورسله ليبينوا للناس ما نزّل إليهم، والثاني: المنهج الأرضي على اختلا ف أنواعه، وتعدد أغراضه، تبعا لتصورات الناس لطبيعة الحياة والناس، ولطبيعة الفرد والمجتمع، فمن نظرة ترى الإنسان على أنه روح فحسب، فتلك سبيل الرهبنة وتعذيب الجسم تاركة الحياة والأحياء وراءها، وأخرى ترى الإنسان جملة من الغرائز والشهوات يجب إشباعها، وثالثة تراه فردا في قطيع أشبه ما يكون بالحيوان، ورابعة تجعله سيّدا مطلقا على هذا الكون لا يصده عن رغائبه صاد، ولا يقف دونه حائل من عقيدة أو خلق أو مصلحة لأي إنسان.

والقاسم المشترك بين هذه التصورات جميعا هو فقدان التوازن والاعتدال، شأن كل منهج من مناهج البشر القاصرة. من هنا كانت الحاجة ماسّة لمعرفة منهج رب العالمين في مجال التربيّة النفسيّة، والمقصود من المعرفة أن يعيش الإنسان في رحاب الآيات القرآنيّة، ويجني ثمارها، ويتذوق حلاوتها في واقعه الحياتي.

وغير خاف على أحد ممن زاول الآيات القرآنية مزاولة مغرم ما كانت عليه حال البشريّة قبل البعثة النبويّة من بُعد عن هدى الرسالات السماوية والهيمنة الشركيّة، و فشو الظلم وارتخاء سدول الجهل، بل لم يكن لهم من عاصم من دين أو خلق، ولا رادع من نظام، ولا وازع من وعي ومروءة، عالم تحكمه شريعة الغاب، يأكل القوي منهم الضعيف، إلى أن أشرقت شمس النبوة الصافيّة المصلحة المربيّة، وماهي إلا فترة يسيرة استطاع فيها المربي الحكيم صلوات الله وسلامه عليه أن يبدل دينهم الذي كانوا عليه بالتوحيد الخالص، وإبادة الجهل وإزالة الفساد الذي ظهر إذ ذاك، وربى النفوس تربيّة فريدة، فانبثقت عن ذلك كله حضارة لم يسبق لها مثيل، وبهذه التربيّة القرآنية تحولت هذه الأمة من الفُرقة إلى الوَحدة، ومن الضعف إلى القوة، ومن القبليّة المتناحرة إلى الأخوة المتآلفة، فكانت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

الإشكالية:

ما السرّ الذي تتبنّاه التربية القرآنية في تهذيب النفوس وتقويم السلوك؟ وللإجابة عن هذا الإشكال، لا مناص أن نعرج عن أهم المصطلحات التي هي مفاتيح هذا البحث المتواضع.

1- التربيّة:

1-1-تتضمن التربية دلالاتٍ لغويةً متعددة، منها:

*الإصلاح: رَبَا الشيء إذا أصلحه، والإصلاح قد لا يقتضي الزيادة وإنما التعديل والتصحيح.

*النماء: رَبا الشّيءُ يَرْبُو رُبُواً ورِباءً: بمعنى زاد ونما.

*نشأ وترعرع: رَبِيَ يَرْبَى، على وزن خَفِيَ يَخْفَى: أي نشأ وترعرع.

*ساسه وتولى أمره: ربيت القوم: أي سُسْتُم: أي كنت فوقهم.

*التعليم: الرباني من الرب، بمعنى التربية، والرباني: الراسخ في العلم أو الذي يطلب بعلمه وجه الله تعالى(ابن الأثير، 1979م، 1-5).

1-2-التربية في الاصطلاح:

يختلف تعريف التربية اصطلاحاً باختلاف المنطلقات الفلسفية، التي تسلكها الجماعات الإنسانية في تدريب أجيالها، وإرساء قِيمِها ومعتقداتها، وباختلاف الآراء حول مفهوم العملية التربوية وطرقها.

هي عند أفلاطون: عمليّة إعداد العقل السّليم، وبهذا تكون غايتها هي نجاح المجتمع وسعادته (علي حسن الدوري، 2009م، 17)، وإعطاء الجسم والروح كل ما يمكن من الجمال(عمر جابر، 1953م، 10)، بل يرى أكبر من ذلك، فإن في كتابه "الجمهوريّة" يقطع بان الحياة الصّالحة لا تكون إلاّ في ظلّ مجتمع منظم تنظيما دقيقا، يكون كلّ فرد فيه حسب وظيفته. كما أنه يميل إلى أنّ التربية تخلق الكمال الإنساني والاجتماعي، ويؤمن بتساوي النساء مع الرجال في التربيّة والتعليم وفرص العمل (محمد منير مرسي، 1994م، 113).

وعند سيمون: هي الطريقة التي يكون بها العقل عقلا آخر ويكون القلب قلبا آخر(سليمان كامل، العبد الله علي، 1965م، 176-177).

كما يسرد المؤلّف مجموعة من التعريفات الفلسفية هي كالتالي (أحمد محمد يحي المقري، 1978م، 2-4):

والتربيّة عند أرسطو:هي إعداد العقل لكسب العلم كما تعد الأرض للنّبات والزرع.

وهي عند ملتون: التي تجعل الإنسان صالحا لأداء أي عمل عامّا كان أو خاصّا بدقة وأمانة ومهارة في السلم والحرب.

وعند بستالوتزي: التربية تنميّة كل قوى الطّفل تنمية كاملة متلائمة.

أما هوبرت: فهي عنده إعداد الإنسان ليحيا حياة كاملة.

وعند هاريس: هي إعداد الفرد إعدادا يمكنه من مساعدة أبناء أمته، وفي نظير تلك المساعدة يجد مساعدة منهم.

والتربيّة لدى الباحثين المعاصرين تكاد تكون امتدادا لذلك التصور لدى الباحثين القدماء من أقطاب التربيّة في العالم الغربي مع اختلافه في التعبير.

يقول صالح عبد العزيز: «التربية هي المؤثرات المختلفة التي توجه وتسيطر على حياة الفرد...ثم يعقب قائلا هذا التعريف نادى به أساتذة وفلاسفة من جميع العصور الغابرة-نادى به القدماء، فلخصوه في العبارة اللاتينية الموجزة "إنما الحياة مدرسة"» (أحمد محمد يحي المقري، 1978م، 2-4)

ويقول محمد عطية الأبراشي: «والحقّ أن كل تعريف من هذه التعريفات يحمل في ثناياه مثلا من المثل العليا التي يبغي المربون تحقيقها والوصول إليها. ثم قال: وفي نظرنا أن التربية إعداد المرء ليحيا حياة كاملة، ويعيش سعيدا ومحبا لوطنه، قويا في جسمه، كاملا في خلقه، منظما في تفكيره، رقيقا في شعوره، ماهرا في عمله، متعاونا مع غيره، يحسن التعبير بقلبه ولسانه ويجيد العمل بيده(أحمد محمد يحي المقري، 1978م، 2-4).

والذي يظهر من خلال التأمل في التعريفات التي توصل لها القدماء والمعاصرون هي جهود مشكورة، غير أنهم لم يصيبوا كبد الحقيقة، فأما من كان قبل الإسلام فليس عليه حرج أو عتاب، وأما أولئك الذين وجدوا بعد ظهور شمس الهداية الربانية وذهبوا يتخبطون كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، ولم يكلفوا أنفسهم البحث عن الحقيقة بالاطلاع على الأقل مما جاء في الإسلام من قواعد التربيّة السليمة ومنهج فريد للقرآن في هذا الجانب بالذات، فإنه يقال: على رسلكم أيها الناس هلموا إلى هذا المعين الذي لا ينضب فاغرفوا منه ما يشفي غليلكم ويروي ظمأكم.

إنّ القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أسعفنا بتعريف للتربية في غاية الإيجاز والشمول في كلمتين من اثنتي عشر حرفا هما **"يزكيهم، ويعلمهم"** في قول الباري سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾**(الجمعة:2)**. فالآية تشير إلى التربية بشقيها الظاهرة والباطنة، إذا فالتربية بهذا المفهوم هي عملية **"تزكية وتعليم"**، وأبلغ دليل على ذلك هوما أنجزه محمد صلى الله عليه وسلم من تعليم لقومه وتزكيتهم وتنشئتهم وتدريبهم جسميا وروحيا وعقليا، فحوّل مجرى حياتهم وبدل تصوراتهم وغير معاملاتهم بالنسبة للفرد والمجتمع والدنيا والآخرة، حتى إنهم صاروا بفضل الله ورحمته خير أمّة أخرجت للنّاس من بدء الخليقة. وانمازوا عن غيرهم بأن جعلهم أمة وسطا، ووسط الشيء أعلاه وأفضله وأحسنه.

2- تعريف النّفس الإنسانيّة:

أخذ الباحثون منذ أقدم العصور يتكلمون عن النفس الإنسانية وأحوالها، ولا يزال كثير من العلماء مختلفين حول حقيقتها ولذا تعددت آراؤهم وتنوعت مذاهبهم.

غير أن الديانات السماوية التي تحدثت عن العوالم الغيبية قد ألقت ضوءا على النفس البشرية لا عن حقيقتها وكنهها بل عن وظيفتها في الحياة. (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى).أي أن وظيفتها في الحياة الإيمان بالله ربّا وعبادته وحده لا شريك له.

2-1- بعض تعريفات النّفس في اللغة:

إذا رجعنا لابن منظور في اللسان نلفي النفس لا تخرج عن هذه المعاني (ابن منظور، 1414هـ، 235):

*النفس بمعنى الروح، يقال: خرجت نفس فلان؛ أي: روحه، ومنه قولهم: فاضت نفسه؛ أي: خرجت روحه.

*النفس بمعنى "حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلان نفسه؛ أي: ذاته وجملته، وأهلك نفسه؛ أي: أوقع الإهلاك

*بذاته كلها، ومنه قول صاحب الصحاح" والتكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره"؛ أي: ذاته.

*النفس بمعنى الحسد والعين، يقال: أصابته نفسٌ؛ أي: عين، والنافس العائن.

*النفس بمعنى الدم، وذلك أنه إذا فقد الدم من الإنسان فقد نفسه، أو لأن النفس تخرج بخروجه، يقال: سالت نفسه، وفي الحديث((ما ليس لها نفس سائلة لا ينجّس الماء إذا مات فيه)).

*النفس ما يكون به التمييز، والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين؛ وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نفسا، وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى.

* النفس بمعنى الأخ، وشاهده قوله تعالى: ﴿فسلّموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾**(النور:61)**

2-2- تعريف النفس في الاصطلاح:

*قال صاحب كتاب التعريفات-**بإيجاز**-" :النَّفْس هي الجوهر البخاريُّ اللطيف، الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم: الروح الحيوانية، فهو جوهرٌ مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم، فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه"(الشريف الجرجاني محمد بن علي الزين، 1983م، 242-243).

***تعريف النفس عند العلماء المعاصرين:**

ذكر العلماء المعاصرون للنفس عدةَ تعريفات؛ منها: أن النفس "هي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة؛ إدراكيةً، أو حركية، أو فكرية، أو انفعالية، أو أخلاقية؛ سواء أكان ذلك على مستوى الواقع، أو على مستوى الفهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلهما وتبادلهما التأثير المستمر والتأثر، مكونين معًا وحدةً متميزة نطلق عليها لفظ (شخصية) تُميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدي به إلى توافقه الخاص في حياته""(فرج عبد القادر طه، 1994م، 12-13).

فإذا قال قائل ذُكرت النفس في مواطن كثيرة في القرآن بمعاني مختلفة فما هي؟

يقول الدكتور عبدالكريم الخطيب في تفسيره - مجيبًا عن هذا السؤال -: والجواب الذي نعطيه عن هذا السؤال مستمَدٌّ من القرآن الكريم، بعيدًا عن مقولات الفلاسفة وغير الفلاسفة ممن لهم حديث عن النفس، وعلى هذا نقول: يُشخِّص القرآن الكريم النَّفْس ويجعلها الكائن الذي يُمثل الإنسان أمام الله، بل أمام المجتمع أيضًا؛ فالقتل الذي يصيب الإنسان هو قتل للنفس؛ كما يقول سبحانه :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: 29)، ويقول جل شأنه :﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَو فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: 32)، وفي مقام القصاص تحسب ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة: 45)، وفي مقام التنويه بالإنسان، ودعوته ليلقَى الجزاء الحسن، تُخاطَب النفس وتُدعَى، فيقول سبحانه :﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر: 27 – 30)، والنفس في القرآن هي الإنسان المسؤول المحاسَب :﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (آل عمران: 30)، وإن بالفهم الذي يستريح إليه العقل في شأن النفس، هو أنها شيء غير الروح وغير العقل، وأنها هي الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوي، إن صح هذا التعبير، إنها تتخلَّق من التقاء الروح بالجسد، إنها التركيبة التي تخلق في الإنسان ذاتيةً يعرِفُ بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومُدرَكاته، فالنفس هي ذات الإنسان، أوهي مشخصات الإنسان التي تنبئ عن ذاته، ولا نريد أن نذهب إلى أكثر من هذا، وحسبنا أن نُؤمِن بأن الروح مِن أمر الله، فلا سبيل إلى الكشف عنها؛ كما يقول سبحانه :﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء: 85)، وأن النفس جهازٌ خفيٌّ عامل في الإنسان، فهي الإنسان المعنوي، ولهذا كانت موضعَ الخطاب من الله تعالى، كما أنها كانت موضع الحساب والثواب والعقاب. (عبد الكريم يونس الخطيب، دس، 166-167).

والخلاصة أن النفس تطلق على ثلاثة معان:

- النّفس بمعنى الذات الإنسانيّة كلها جسم وروح
- النفس بمعنى الروح التي تقبض عند الموت
- النفس بمعنى الجانب المدرك من الإنسان وهو العقل.

هذا، وإن القرآن الكريم عُني بالنفس الإنسانية عناية فائقة، عني بالعقل كما عنى بالجسم والروح معا، لأن التعليم يحدث مع التزكية في آن واحد وليس هناك فصل بينهما، وهذه العناية الربانية قائمة بالصغير والكبير، بالغني والفقير، بالراعي والرعية، بالرجل والمرأة، فالشخص الجلف الذي كان يتملظ حقدا ويعَضّ أنامله غيظا، بغضا لهذا الدين وعداء للمسلمين، ما أن استمع إلى آيات الله تتلى عليه، وإلى دعوة رسول الله الهادية تطرق قلبه حتى أسلم واستسلم، أسلم نفسه وقلبه لله، واستسلم لأوامر الله، فأصبح شخصا آخر، تغيرت حاله، وتبدلت طباعه، فمن الجلافة والغلظة إلى الودّ والرقّة، ومن الحقد والبغضاء إلى الخير والحب والمودة والإخاء، ومن حبّ الذات والسطو والنهب إلى الإيثار بالمال والنفس والنفيس، والجود بالنفس إلى أقصى درجات الجود.

وما ذلك كله إلا لكمال منهج التربية في القرآن الكريم وشموله، ومعالجته لجوانب النفس الإنسانية المختلفة، من نزعات ورغبات وعواطف وانفعالات. فالتعليم والتزكية هما ركنا التربيّة لا حياة للفرد ولا للأسرة ولا للجماعة ولا للأمة إلا بوجودهما، لأنه لا حياة إلا بسعادة، ولا سعادة إلا للنفس الإنسانية بتطهيرها من داخلها وربطها بمربيها الحقيقي، وهو الله تعالى خالقها ومدبرها، كما أنه لا تكتمل سعادتها إلا بتعليمها ما ينفعها في معاشها ومعادها، وما يؤهلها للقيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض.

وقد رفع الإسلام من قدر التربية من حيث كونها إعداد للفرد الصالح القادر على حمل الرسالة بعد أبيه، ليبقى كلمة باقية في عقبه فتظل راية الدين خفاقة عالية وكلمته مسموعة محترمة، ولهذا السبب امتاز الإنفاق على الذريّة بتقدير خاص، ولكن الإنفاق ليس حق الأولاد على الآباء، بل عليهم أن يتعاهدوهم بالرعاية والتهذيب وتعليم القرآن الكريم لأن في ذلك الجزاء الأوفى يوم القيامة وقرة العين في الدنيا.

والتربية تكون بالحزم المرافق للرحمة والعطف فمن لا يَرحم لا يُرحم والولد أولى الناس بالعطف والرحمة ولا نعني بالرحمة التدليل المفسد للطباع ولكنها الرحمة التي ترعى مواهب الابن، وتأخذ بالحزم ولا تلجأ للشدة لأنها منفرة، وقد تحدث في نفس الطفل عقدا نفسيّة خطيرة تكون سببا للعقوق والعياذ بالله.

والتربية الحقيقية التي يترتب عليها الثواب من الله تعالى هي ما شملت الجوانب النفسية بالإصلاح والتهذيب. ووسيلتها في ذلك علم صادق يستهدف رضوان الله تعالى عن طريق العمل المثمر أيا كان نوعه، فطريق الإسلام في التربية هو معالجة الكائن البشري معالجة شاملة لجسمه وروحه وعقله، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض.

أما أولئك الذين يتصورون أن التربية عملية نمو للفرد الإنساني وأن النمو غاية في ذاته، وأن التربية تعنى بحاضر الطفل لا مستقبله. والطفل عندما يمر بمرحلة من مراحل نموه كان على التربية أن تيسر له سبيل الاستمتاع بهذه المرحلة إلى أقصى حد ممكن، إذ أنه من الخطأ في تصورهم أن يخضع حاضر الطفل الذي يعيش فيه لمستقبل لا نستطيع السيطرة عليه. أما أصحاب هذا الرأي في التربية فمخطئون؛ ذلك لان مفهوم التربية بهذا المعنى أن نربّي عجولا بشرية ونفسح لها المجال للاستمتاع في كل مرحلة من مراحل النمو وأي حد من هذا الاستمتاع يعتبر كبتا، فالطفل في مرحلة الطفولة يترك سائبا وتهيأ له وسائل الاستمتاع دون قيود أو حدود، والمراهق في مرحلة المراهقة يترك هملا ليستمتع بكل وسائل الاستمتاع، والشاب يترك للعبث والمجون بل وتهيأ له وسائل العبث لمجرد الاستمتاع لأنه لا يجوز أن نخضع حاضره لمستقبل لا نستطيع السيطرة عليه!! وهذا النوع من التربية هو الذي جنى على الأفراد والجماعات وحطم الأمم والمجتمعات، وأدّى بالتالي إلى الذلّ والانهيار. (أحمد محمد يحي المقري، 1978م، 10).

ولو أمعنا النظر إلى بعض الأمم والشعوب ممن أخذوا بهذا النوع من التربية لوجدنا الغالبية من أبناء هذه الشعوب يئنون أنين الثكالى لما أصابهم من الطعنات القاتلة مما أودى بفتيانهم وفتياتهم إلى الحضيض، والدليل على ذلك ما يحدث من هؤلاء الشباب وهم أصحاب الثراء والجاه والسلطان ما يحدث منهم من رفض للحياة التي يعيشونها بأسلوبهم الخاص، فالمقصود أن الإسلام لا يقصر النفس الإنسانية على ما ليس من طبيعتها لكنه يعمد إلى تهذيب هذه الطبيعة دون كبت لشيء من نوازعها الفطرية لأنه لا رهبانية في الإسلام، وبذلك يسعى إلى التوفيق الدائم بين أهداف الحياة وضرورات المجتمع ونوازع الفرد دون أن يطغى هدف على هدف حتى يتم أقصى ما يمكن من السعادة على ظهر الأرض.

3-التشريع الإسلامي وأثره في تربية النفوس:

مما لا يخفى أن التشريع الإسلامي بسعته وشموله قد أثر على النفوس البشرية تأثيرا كبيرا فغير مجرى حياتها رأسا على عقب، فالنفوس التي استجابت لداعي السماء وتقبلت تشريع الحكيم العليم تغيرت لديها المفاهيم والقيم، وانعكست عندها الموازين التي كانت سائدة وانتقلت من الشرك إلى التوحيد، ومن الغزو والسلب إلى المسالمة، ومن الفوضى القبلية والعصبية لها بحق أو بباطل إلى الالتزام بأوامر الله والخضوع له والولاء له وحده ولاء كاملا، ومن احتقار المرأة وامتهانها إلى إجلالها واحترامها، ومن الإباحيّة الجنسيّة إلى الطهر والعفة والنكاح المشروع ومن نظام الطبقات واستعلاء بعضها على بعض والمفاخرة بالأنساب غلى المساواة، فأصبح سواسية كأسنان المشط، بل وانظر إلى صفة كريمة سامية لا يرقى إليها إلا من بلغ درجة من الكمال النفسي والاستعداد الخلقي في قول الله تعالى: ﴿وإن

عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾(النحل:126)، فآثر الذي هو خير وتحلى بالصبر وبادر بالعفو عند المقدرة(يوسف القرضاوي، (2007/03/10)، موقع سماحة الشيخ يوسف القرضاوي).

أما قضية الولاء للقبيلة فقد اهتم به الوحيان أيما اهتمام واستأصلاه من جذوره بل وحولاه إلى الولاء لله وحده ولرسوله وللمؤمنين، وأمر ا بالإحسان إلى الوالدين وطاعتهما حتى وإن جاهدا الإنسان على أن يشرك بالله تعالى فإنه تجب معاملتهما ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، وأما عناية الإسلام بالمرأة والرفع من مكانتها وشأنها ووصفها بأحسن الصفات فحدث ولا حرج؛ حتى إنه كانت ليس لها نصيب في الميراث من العقليات السائدة والنفسيات المريضة آنذاك يقول الباري تعالى: ﴿بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾(النحل:58)، فسبحان من أنصف المرأة وجعلها من المحصنات، فكل ذلك التغيير الذي حدث في الصفوف، وكل ذلك التأثير الذي سرى في النفوس كالكهرباء ما هو إلا ثمرة من ثمرات هذا التشريع السماوي الذي ختم الله به الشرائع بمبادئه السمحة، وشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الفريدة التي هي خير قدوة للناس. ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة﴾ (الأحزاب:21)، (أحمد محمد يحي المقري، 1978م، 119).

4-الآداب التربوية في القرآن الكريم:

إنّ القرآن الكريم يضع قواعده الفريدة في الآداب حرصا على سلامة النفوس وطهارتها، وبناء المجتمع النقي النظيف الذي يسود أفراده العفّة والاحترام كما تحول دون نشوء المفاسد ووقوع الجرائم.

وهذه القواعد بمثابة السياج الواقي الذي يحصن الإنسان من الوقوع في فيما لا ينبغي وارتفاع به إلى مستوى يليق به كإنسان مهذب يشعر بالتبعة الملقاة عليه من قبل الله باعتباره الخليفة لله في الأرض، منها:

4-1-الاستئذان:

قال الباري سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون، فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله خبير بما تعملون، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.. إلى قوله سبحانه: يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذي ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم﴾ الآية (النور:27-29و58).

إن الإسلام منهج حياة كامل فكما تكفل ببيان التكاليف الشرعيّة وأحكام المعاملات بين الناس تكفل أيضا بالآداب اليومية، فالرقيق والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون البيوت عادة بلا استئذان، إلا في ثلاث أوقات لأنها مظنة لأن تتكشف فيها العورات وهي قبل صلاة العشاء ووقت القيلولة عند الظهيرة وبعد صلاة العشاء وهذه الأوقات عادة تخلع فيها الملابس وتغير بأخرى، وهي أوقات خلوة يستريح فيها الإنسان مع أهله، فشرع الاستئذان في هذه الأوقات، وأي أدب رفيع هذا وفقه للأسرة راق والناس عنه غافلون.

قال الأستاذ قطب –رحمه الله-: «وهو أدب يغفل عنه الكثيرون في حياتهم المنزليّة مستهينين بآثاره النفسيّة والعصبيّة، والخلقيّة، ظانّين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السّادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه

المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثّر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسيّة وعصبيّة يصعب شفاؤهم منها». (سيد قطب، 2004، **4**/2532).

2-4-غض البصر:

قال الله في كتابه المجيد: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن وأبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أوبني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل لم يظهروا على عورات النساء وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون﴾(النور:30-31).

ومن هذه التربية الفريدة نذكر أنموذجا لأثرها في نفوس الصحابيات الجليلات-رضي الله عنهن-فما أن سمعن الآيات حتى بادرن بالامتثال سامعات مطيعات مطبقن لمضمون الآية، قالت عائشة-أم المؤمنين رضي الله عنها-:«رحم الله نساء المهاجرات الأول لما نزل ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾(النور:31)، شققن مروطهن –وفي رواية-ازرهن. فهذا عنوان الأدب –بحق-مع ما قضاء الله ورسوله. (أحمد محمد يحي المقري، 1978م، 299).

3-4-التحيّة وردّها:

التحية من الأمور الهامة في الإسلام بل هي من حق المسلم على أخيه المسلم، وقد قرنها الباري سبحانه وتعالى بالاستئذان والدخول في البيوت، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾(النور:61).فالتحية من الأعمال التي إن فعالها الناس تحابوا وتآلفوا أو كما قال عليه الصلاة والسّلام بل وينبغي أن تشيع بين من تعرف ومن لا تعرف حتى تزول الوحشة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

4-4-أدب الجلوس:

يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم، وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾(المجادلة:11).

فالقرآن الكريم يدعو إلى الأدب في الجلوس مع الناس، ويتولى تربية النفوس على ذلك وتعليمها السماحة والطاعة، ويستعمل أسلوب التشويق، وبذلك يتحول الشعور من حب الذات إلى إيثار الغير على النفس.

ففي الآية الكريمة أمر للمؤمنين بالإفساح في المجالس ووعد لهم بالإفساح من الله عنهم في كل ما يريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغيرها، ووعد لمن أطاع الأوامر برفعه من الله جزاء تواضعه لأوامر الله وامتثالها، ومن رفعه الله تعالى فإنه لن يوضع أبدا.

5-4-أدب الحديث:

قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾(المجادلة:8)، وقال سبحانه:﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾(الإسراء:53)، وقال جل وعز: ﴿وقولوا للناس حسنا﴾(البقرة:83).

فهو أمر واضح باختيار أحسن الكلمات والأقوال في أثناء محادثاتهم مع الناس لأن الكلمة السيئة لا يعقبها إلا الرد السيء، فالكلمة الطيبة صدقة ؛ تفتح القلوب وتأسي الجراح وتؤلف بين الأفراد وتجمع على الود والإخاء، والسماحة

والنّدى، وأي صدقة أعظم شأنا منها؟. ونكتفي بهذا القدر من الخصال الحميدة والشمائل الفاضلة والأخلاق الرفيعة والأدب الجم وهذا قطرة من بحر.

ومن المعلوم أن التربيّة لا تقوم إلا على الأمر بالفضائل والنهي عن الرذائل، فكذلك القرآن ينهانا عن الأخلاق الذميمة الدميمة صيانة للنفس الإنسانية عما يترتب على هذه الأخلاق من المفاسد ليرتفع بها إلى درجة السمو الخلقي والكمال النفسي.

4-6-الكذب:

قال تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون﴾(النحل:105).

فالكذب خصلة ذميمة وهي من خصال المنافقين –والعياذ بالله-بل هو جريمة لا يقدم عليها إلا المجرمون، ولما كان الكاذب يفتضح أمره يردفه بالحلف حتى يصدقه الناس، يتخذونها جنة ليصدوا عن سبيل الله، ولكن الرب جلّ وعلا توعد الكاذبين بسوء المصير والعذاب الأليم، ووصفهم بأنهم بعيدون عن الفلاح، ومعنى ذلك أنهم خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

4-7-الرياء:

يقول الله تعالى: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾(النساء:38)، ويقول أيضا:﴿يأيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾(البقرة:264).

ففي هذه الآيات التحذير الشديد من هذه العاهة النفسية التي تصيب الإنسان فتجعل كل ما عمل من عمل هباء منثورا، فصاحب هذه الخصلة يبطن خلاف ما يظهره إذ هوفي الحقيقة ضرب من النفاق الذي يجلب على الإنسان الدرك الأسفل من النار، وفي نفس الوقت هي دعوة للبراءة من هذه الصفة والعدول عنها إلى ضدها وهي الإخلاص لله تعالى في جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

4-8-قول الزور، شهادة الزور:

وقول الزور أعمّ من شهادة الزور، لأنه يمثّل كل قول مزيف يريد به صاحبه إلباسه ثوب الحق وهوباطل باطل، لذا حذّر القرآن العظيم منه، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿واجتنبوا قول الزور﴾(الحج:30)، ثم إن الله جل وعلا وصف بالإيمان من امتنع عن شهادة الزور، وانظر قول الرب جل وعز:﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾(الفرقان:72)، وبالمقابل ينهى القرآن الكريم عن كتمان الشهادة بالحق، يقول سبحانه وتعالى:(ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾(البقرة:283)، وقال سبحانه:﴿وأقيموا الشهادة لله﴾(الطلاق:2)، وقوله: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾(البقرة:140)، بل وتوعد من يفعل ذلك من كتمان البينات والهدى باللعن والطرد من رحمته جل وعلا، وحلول لعنت الملائكة والناس أجمعين على من اتصف بتلك الصفة.

4-8-الجهر بالسوء:

لقد اعتنى الإسلام بتطهير الضمير الإنساني، بمقدار اعتنائه بتربية العقيدة الصحيحة في النفوس، حتى سما المجتمع الإسلامي الشريف النظيف في صدر الإسلام، وفاق كل المجتمعات فاستحقّ قيادة البشريّة، يقول ربنا عز

وجلّ:﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما، إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا﴾(النساء:149).

4-9-الهمز واللمز والنبز والسخرية:

إن هذه الصفات مثل أن يعيب الناس غيبا ويغضبهم سواء بالإشارة من قبيل الرمز أو بالكلام الخفي أو بتعيير الشخص أو قلب اسمه على وجه الاستهزاء والسخرية، كل تلك الصفات الخبيثة ما ينبغي للإنسان السوي المؤمن أن يتصف بها، وإلا كان في قلبه مرض وحال نفسه مضطربة غير مستقرة ولا مطمئنة بالإيمان، كما أن من يفعل ذلك فاعلم أن لديه نقصا معينا على جهة العقدة النفسيّة يريد أن يعوض نقصه بالتهكم بالآخرين وذمهم وكشف عيوبهم وأكل لحومهم، وهذه دناءة وأي دناءة وحقارة، إذ هذا ما يسميه علماء النفس "مركب النقص"، من أجل ذلك فإن القرآن الكريم يرنو استنهاض النفوس إلى سمو دونه أوج كيوان، فالرب جلّ وعز يتوعد أولئك المتسمين بهذه السمة بالعذاب والضلال البعيد، فهو انحطاط نفساني لا يخفى إلا عن ذوي البصائر الخفاشيّة.

من خلال هذه الآيات الكريمة تتجلّى عناية القرآن الكريم بكرامة النفس الإنسانيّة وكرامة المجتمع الإسلامي بتحريم ما يؤدّي إلى تفككه وضعف تماسكه، إذ كرامة الفرد من كرامة الجماعة ولمز أي فرد هولمز للجماعة وبهذا جاء التعبير القرآني ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾(الحجرات:11).

والمقصود أنّ القرآن الكريم يشير إلى القيم الأرضية التي تعارف عليها الناس من غنى وفقر، وجمال وقبح، وقوة وضعف إلى غير ذلك ليست هذه هي القيم الحقيقية التي يوزن بها الناس عند الله، فالمقياس الصحيح هومقدار مكانة الإنسان عند الله وارتباطه به وتوجهه إليه. ومع ذلك فالقرآن الكريم يهزّ العاطفة الإيمانيةّ ويذكر المؤمنين بأن من حق المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه، ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه، وهذه إحدى قواعد الأدب النّفسي في القرآن العظيم.

خاتمة:

1) مفهوم التربيّة في القرآن الكريم يتمثل في **التزكيّة** ومعناها تصفية النفوس من الكدورات وهوما يسمى **بالتخليّة**، **والتعليم** أي: تعليمها ما ينفعها في الحياة العمليّة وهوما يسمّى **بالتحليّة**.

2) التربية القرآنيّة منهج متكامل للحياة يتثبت من خلال القدوة الحسنة.

3) الغاية من التربيّة النفسيّة القرآنيّة هداية البشريّة إلى ربها ومعبودها-سبحانه وتعالى-وثمرتها طمأنينة النفس الإنسانيّة، ومن هنا يتأتى لنا قيام المجتمع الفاضل الذي يسوده الحب والسلام.

4) تطلق النفس على ثلاث معان أساسيّة هي:النّفس بمعنى الذات الإنسانيّة كلها جسم وروح، النفس بمعنى الروح التي تقبض عند الموت، النفس بمعنى الجانب المدرك من الإنسان وهوالعقل.

5) النفس الإنسانيّة هي محلّ العناية الربّانيّة كرمها بالعقل وأعطاها رغبات وغرائز وبين لها بلوغ إشباع تلك الغرائز بالطرق الآمنة الموزونة.

6) التربية النفسيّة القرآنية تذكر بالنعم وتدعوإلى شكر المنعم ومراقبته، فمراقبة المنة ومشاهدة عيب النفس هي من الإحسان.

7) أساس التربية الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، والاقتداء برسوله عليه الصلاة والسلام.

8) أما الجانب الأخلاقي فما من شيء في صلاح الفرد والمجتمع وكان من عوامل التماسك والتآزر إلا ورغب فيه القرآن وأجزل المثوبة عليه، وما من شر من الصفات والمناقب إلا حذر منه وعاقب على فعله وتوعد بالنكال، فسبحان الذي لم يفرط في الكتاب من شيء!

9) هذه ملامح التربية النفسية في ظلال الآيات القرآنية نسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا من المستمسكين.

قائمة المراجع

1- أحمد محمد يحي المقري، (1978م)، تربيّة النفس الإنسانيّة في ظلّ القرآن الكريم، مكة المكرمة، المكتبة المركزية لجامعة أم القرى.(رسالة ماجيستير).

2- سيّد قطب، (2004م)، في ظلال القرآن، ط34، مصر، دار الشروق.

3- عبد الكريم يونس الخطيب، (دس)، التفسير القرآني للقرآن، دط، القاهرة، دار الفكر العربي.

4- عمر، جابر، (1953م)، المدخل في التربيّة، ط1، بغداد، مطبعة المعارف.

5- فرج عبد القادر طه، (1994م)، أصول علم النّفس الحديث، ط2، القاهرة، دار المعارف.

6- المبارك بن محمد الجزري أبوالسعادات، ابن الأثير، (1399هـ /1979م)، النهاية في غريب الأثر، بيروت، المكتبة العلمية.

7- علي حسن، الدوري، (2009م)، أصول التربيّة في مفهومها الحديث، ط1، الأردن.

8- محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (1983م)، التعريفات، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة.

9- محمد بن مكرم بن على، أبوالفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، (1414هـ)، لسان العرب، ط3، بيرت، دار صادر.

10- محمد منير، مرسي، (1994م)، تاريخ التربيّة في الشّرق والغرب، القاهرة، عالم الكتب.

سليمان كامل، العبد الله علي، (1956م)، التربيّة، بيروت، دار صادر.

11- يوسف القرضاوي، (2007/03/10)، التشريع الإسلامي أهميته وضوابطه، موقع سماحة الشيخ يوسف القرضاوي.**https://www.al-qaradawi.net/node/4300** -بتصرف-.